

الرد الجلي على مصطفى الولي

صقر أبو فخر

حينما وصلني رد مصطفى الولي على مقالتي المنشورة في العدد السابق بعنوان: "الحكمة تأتي دائماً متأخرة"، توقعت أنني سأكون أمام مبارزة فكرية وسياسية بما تعني كلمة "مبارزة" من نبل وفروسية ونزاهة نقدية. لكنني حينما قرأت الرد، بعد تهذيبه وتشذيبه ليلائم المكانة الأدبية لـ "مجلة الدراسات الفلسطينية"، اكتشفت أمراً مختلفاً؛ فالكاتب والمعرفة كطرفي المقص تماماً: كلما اقترب المقبضان ابتعدا. وقد عجبت، أيما عجب، لهذا الطراز من اللغة البائدة. فكنتُ خلتُ أن زمن هذه اللغة البدوية مضى وانقضى. لكنني فوجئت بأن أول كلمة استخدمها "الكاتب" في رده عليّ كانت كلمة "ثار"، وآخر عبارة اختتم بها رده كانت عبارة "ثار سياسي". ولا أتجاوز الوصف أبداً إذا قلت إن رده عليّ، من أوله إلى آخره، كان مجرد رد بدوي. و"العقل" البدوي، كما تجلى بأوضح صورهِ في هذا الرد، لا يعرف أمراً اسمه البرهان أو الحجة على الإطلاق، إنما هو "عقل" احترابي من الألف إلى الياء. لهذا لم أدهش بتاتاً لهذه اللغة التي ما زالت شائعة جداً في بعض الكتابات العربية لأنها، وعلى الرغم من الانقلابات ذات الشأن في العلم والفكر والسياسة والاجتماع، ما زالت شائعة بقوة. ولعل هذا من طبيعة الأمور؛ فالسيارة المعطلة يمكنها أن تستمر في السير ما دام الطريق منحدرًا.

تساءلت مراراً: ما الذي أثار "الولي" ليردّ بمثل هذا الرد مع أن نصيبه من كتاب "بوح في المتاح" هو نصف عدد الأسئلة فقط؟ إن مقالتي الموسومة بعنوان "الحكمة تأتي دائماً متأخرة" ليست سجلاً مع "الولي" قط، إنما هي مناقشة للأراء والأفكار والمواقف التي عرضها الياس شوفاني في هذا الكتاب. ثم ما علاقة الكاتب بحركة فتح كي ينبري للمنافحة عن تجربة "التيار الديمقراطي" في الحركة؟ فالولي لم ينتم إلى حركة فتح أو إلى "التيار الديمقراطي" في أي يوم من الأيام، مع أنه تنقل بين جميع صنوف المنظمات الفلسطينية؛ فقد التحق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ثم تبع أحمد الفرحان (أبو شهاب) وطارق الربيعي (أبو اليسار) ومروان بكير وغيرهم ممن انشقوا في 10 آذار/مارس 1972 واتخذوا لأنفسهم اسم "الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين" التي اندثرت سريعاً. ثم اخترعوا ما سمي "المقاومة الجديدة" (وهي

اسم نشرة متواضعة جداً)، وانهمكوا في حياكة أو هام عن الحزب الشيوعي العربي الموحد هنا، أو منظمة شيوعية عربية هناك. وبعد "وقفه تعبوية" في "رابطة الشغيلة" زمن ظافر الخطيب، التحق بجهة التحرير الفلسطينية، ثم لم يلبث أن تركها لينضوي في سجلات حركة فتح - الانتفاضة، ومنها إلى منزله.

الحقيقة أنني كنت أرغب، فعلاً، في فتح سجل نقدي مستفيض مع صاحب الكتاب نفسه. لكن، ما دام أي قارئ يمتلك الحق في أن يناقش ما شاء من الآراء، فسأبني على الشيء مقتضاه وأنظر إلى رده عليّ كأنه من مساهمات القراء.

في مقالتي "الحكمة تأتي دائماً متأخرة" عرضت لأكثر من ثلاثين نقطة سجالية، بينها عدد من الأغلاط المادية التي لا يجادل في وقائعها وأحداثها إلا المكابر والمكاسر. أمّا الولي، الذي عجز عن دحض تصويباتي، فلم يناقشني إلا في ثلاث وانصرف عن النقاط الأخرى بعدما أخذ عليّ أنني لم أتطرق إلى بقية فصول الكتاب وإنما اكتفيت بمقتطفات منه فقط، وكان عليّ، بحسب نصائحه، أن أتناول هذه الفصول كلها، ولا سيما الفصل الأول الذي "احتوى تجربة الرجل منذ سنة 1947 حتى مغادرته الوطن إلى الولايات المتحدة الأميركية". ولعلم من يريد أن يعلم فإنني بنفسني كتبت عن "تجربة الرجل"، أي الياس شوفاني، في هذه المجلة بالذات، وفي العدد 21 بالتحديد (شتاء 1995)، وتناولت، بالتفصيل، كتابه "رحلة في الرحيل" (بيروت: دار الكنوز الأدبية، 1994). ثم أنني، من جانب آخر، غير مهتم بمناقشة الموضوعات العامة التي لا خلاف في شأنها، لأنني أنفر إلى السجال على ما هو خلافي وترجيحي ومشكوك فيه، وأنفر مما هو يقيني ومتفق عليه ومأنوس بين الناس. فالكلام على ما هو شائع، ولا سيما إذا اختلط بالتقريظ والمدح، ليس من لغتي. وما يكتبه الياس شوفاني لا أختلف معه في بعض جوانبه، إنما الخلاف هو بشأن تجربته السياسية وتفصيلاتها لا بشأن الأفكار والنظريات. وهذا ما لم يدركه الولي كما يبدو. لهذا لا يسوؤني أن يشير الولي بغضب إلى عبارة "الياس يرقص" التي هي اختطاف تحويلي لاسم الياس مرقص. ولعله لا يعرف أنني كنت واحداً من مساجلي الياس مرقص في مجلة "الواقع" التي أصدرها في نيسان/أبريل 1981، ومن المترددين على "دار الحقيقة" في بيروت في عهد ياسين الحافظ والياس مرقص معاً. أمّا "الياس يرقص" فهي، لعلم الكاتب، عبارة كانت مشهورة جداً في بيروت في إبان حقبة السبعينات من القرن العشرين، وطالما تندر أصدقاء الياس مرقص بها عليه، تحبباً حيناً ووخزاً حيناً آخر، وأحسب أن العفيف الأخضر هو من أطلقها أول مرة.

يقول الكاتب رداً على واحدة من الأغلاط الواردة في كتاب "بوح في المتاح"، والتي

عرضتها في مقالتي، إن "من يراجع النص في الصفحة 27 سيقراً بوضوح أن ما ذكر هو أن بن - عامي قائد الهاغاناه الميداني في معركة الكابري." وقد فتشنا ونقبنا مجدداً في الصفحة 27 ولم نعثر على عبارة "قائد الهاغاناه الميداني في معركة الكابري" قط. فمن أين أتى بها إذاً؟ إنه، ببساطة، يواجه النقد بروح التملص لا بالعلم. أي أنه يختلقها تماماً مثلما اختلق على لساني كلمة "سبع مرات" ونسبها إليّ في قولي إن ياسر عرفات تعرض للاغتيال عدة مرات، فزور عبارة "سبع مرات" وحشاها في ثنايا رده قبل أن تمتد إليه يد المحرر لتهذب ألفاظه وتشذب عباراته. ومع هذا، لم أستسغ أن يسمح لنفسه بأن "يهمس في أذني" قائلاً إن قدمي الياس شوفاني لم تطأ أرض ليبيا في حياته قط. فلماذا يهمس؟ وخوفاً ممن؟ ومرة ثانية، لماذا يهمس ما دام الياس شوفاني كشف ذلك صراحة في الصفحة 127 من الكتاب؟ إنه باختصار همس لا نفع فيه. وما دام يختلق ويحرّف فقد رأيت أن أنصرف عن دحض بقية النقاط التي أثارها "الكاتب" لأن لا جدوى في ذلك.

جاء "الولي" ليعلمني كيف أكتب. إنها أضحوكة. والحكيم والنبية والعاقل لا يكتب شيئاً لا نفع فيه. وردّه عليّ مجرد لغو لا ينفع.

أليس كذلك؟ ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>